

الاستشراق و الصور النمطية

الجزائر أنموذجا

Orientalism and stereotypes

Algeria as a model

الطاهر صافي^{1*}،t.safi@univ-skikda.dz ،¹ جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة (الجزائر)،

تاريخ النشر: 2024/01/30

تاريخ القبول: 2022/11/24

تاريخ الاستلام: 2022/04./07

ملخص:

نسعى في هذه الورقة البحثية إلى الكشف عن ضرب من ضروب فكر غربي تتخفى وراءه إرادة هيمنة يعرف بالإستشراق. والذي يعد البحث فيه بمثابة نبش لجروح عميقة راکمتها علاقة متوترة في الغالب بين طرفين غير متكافئين أحدهما أمتلك المعرفة وبالتالي القوة و الآخر كان مجرد موضوع دراسة. و هو ما منح الإستشراق صفة الخطاب أو الإنشاء. لكنه خطاب لا يعكس وقائع أو حقائق بقدر ما يعكس تمثّلات وصور نمطية تختفي وراءه سلطة أو قوّة تهدف إلى طمس الواقع المدروس وإعادة تشكيله بالطريقة التي يراد له. ولعلّ ما أنتجه الخطاب الإستشراقي الفرنسي عن الجزائر من صور خير مثال على ذلك.

الكلمات المفتاحية : الإستشراق- الخطاب - الإنشاء - التمثّلات - الصور النمطية- سلطة - قوة- الإستشراق الفرنسي .

Abstract:

This study aims to show a type of Western thought known as orientalism, behind which the will to dominate is concealed. It is a subject in which the research is an exhuming deep wounds, accumulated by a tense relationship often between two unequal parties, one of whom possessed knowledge and therefore power, and the other was just a subject of study. This gave Orientalism the status of discourse or construction.

* المؤلف المرسل: صافي الطاهر

But it is a discourse that does not reflect facts, as much as it reflects representations and stereotypes, behind which an authority or force, that is lying to obliterate the thoughtful reality. and reshape it in the way they want. It's certain that the pictures produced by the French Orientalist discourse on Algeria are a good example of this.

key words: Orientalism - Discourse - Construction - Representations - Stereotypes - Authority - Strength - French Orientalism .

1. مقدمة:

ما من شك أن تنامي الغرب علميا وصناعيا بعد جهود عصر التنوير إبان القرن الثامن عشر ، قد ولّد طموحا جديدا لديه في اقتحام جغرافيا أخرى ، ليس بحثا فقط عما يشبع نهمه الصّناعي ، إنّما كذلك تفرّغا لشحنة الإمتلاء عنده ، و تجسيدا لعظّمته كشعب التاريخ المختار . وقد وجد الطريق إلى ذلك بضرورة المرور عبر تراث وثقافة هذه الجغرافيا ، فأنشأ ما عرف بالإستشراق أو المعرفة الخابرة بالشرق ، فكانت الجزائر كقطعة من شرق متخيل ، توحى بشتى الصور المتفردة و المتداخلة ، والتي يتقاطع فيها ما هو أصيل مع ما هو محدث ومركب ، ما هو جغرافي مع ما هو إجتماعي ثقافي ، صور مثلت المشهد الإستشراقي عن المجتمع الجزائري ولا زالت بصورة أو بأخرى ، فما مدى تأثير هذه المعرفة بالآخر على العقل الغربي (الفرنسي) من جهة والعقل المحلي (الجزائري) من جهة أخرى ؟ ثم ما مدى إسهام الصّور النمطية التي شكّلها الإستشراق عن المجتمع الجزائري في خلق معرفة استعلائية ، وتشكيل مركزية معرفية فرنسية ظلّت إلى اليوم الأنموذج في فهم طبيعة هذا المجتمع ؟ إن هذا التساؤل المحوري هو الذي سنتناوله في هذه الورقة البحثية على أمل الوقوف على تفكيك ما راكمته بعض الكتابات الإستشراقية عن مجتمعا الجزائري .

2. الإرث الاستشراقي والكولونيالية :

لقد شكلت الظاهرة الإستشراقية عبر تاريخيتها منعطفا حادا في تاريخ الوعي العربي الإسلامي، وجدلا واسعا بين "آخر مشبعا بثقافة تدعي الكونية و المركزية، و "أنا" سكنها العجز، لكتها حاملة، تعيش على أمل إستعادة بريق ماضيها. فنجم عن ذلك تباين النظرة لهذه الظاهرة ، ما بين مدافع عنها، و ما بين قاذح لها، أو طرحها كقضية إستيمولوجية بغرض تفكيكها و تعريتها. و كلّ ذلك في حقيقة الأمر لا يعكس إلا حجم الظاهرة و دورها في تحديد علاقة الجدل بين الشرق و الغرب أو بين الأنا و الآخر، خاصة و أن العقل العربي أصبح مطالباً أكثر بتسوية رؤية جديدة لذاته و للآخر في آن واحد. رؤية تعيد رسم خرائط تفكيره من جديد و تفسح المجال لمجاوزة تعثراته في نظرتة و تعامله مع الآخر.

1.2 الإستشراق: مقاربات مفاهيمية:

يشير مصطلح الإستشراق إلى الدراسة التي قام بها الكتّاب الغربيون عن الشرق كجماعة أو كيانات ثقافية أو كحضارة متفردة و متميزة . أو بصورة أخرى يشير إلى تلك الممارسة العقلية الغربية التي تكشف مظهرها من مظاهر العقل الغربي في إعادة صياغته الآخر وفق رؤية محددة⁽¹⁾ (عبد الله إبراهيم : الثقافة العربية و المرجعيات المستعارة ، 1999، ص 177).

ويقترّب هذا المفهوم من المفهوم الذي صاغه إدوارد سعيد حينما اعتبره: "أسلوب غربي للسيطرة على الشرق"⁽²⁾.

(إدوارد سعيد: الإستشراق: السلطة، المعرفة، الإنشاء).

ويعود الإستشراق خاصة الحديث منه إلى القرن الثامن عشر الذي شهد نموا للوعي الغربي إنعكس في مسارين متلازمين: مسار الفكر العلمي ومسار الفكر الفلسفي، الأول يبدأ من الثورة الكوبرنيكية ثم غاليلي، و هي الثورة الأولى التي شكلت قطيعة إستيمولوجية مع فيزياء أرسطو، وجاءت بعدها الثورة الثانية مع نيوتن في القرن الثامن عشر، وقد مكّن ذلك من دخول أوروبا لأول مرة مجتمع الصناعة أما الثاني فيبدأ من ديكارت في القرن السابع

عشر وظهور الكوجيتو الذي ينطلق من الشك في المعرفة ليؤسس لإبستمولوجيا ديكارتيّة بديلة ، أعقبها بعد ذلك ثورة كانطية عظيمة تزامنت مع فيزياء نيوتن والتي أسست لنظرية جديدة في المعرفة تقوم على بيان حدود العقل وبيان حدود الواقع (التجربة) فهذا الإرث المعرفي منح العقل الغربي لأول مرة غرورا ما بعده غرور ، خاصة مع مجيء القرن التاسع عشر وتكاثف البحوث في مجالات الطبيعة و الإنسان أين أستثمر ذلك على مستوى الصناعة والتجارة و العمران ، قاد الأمر بعد ذلك إلى التطلع خارج الحدود الجغرافية .

فكانت حملة نابليون إيدانا بتفوق الغرب ، وتدشيننا لتوجه جديد نحو الشرق ، توجهها معرفيا وعسكريا ، من أجل إمتلاكه معرفيا وكذا إقتصادي ، فبدأ الإهتمام بثقافة هذا الشرق و هي على الخصوص العربية و الإسلام ، كما بدأت التنقيبات عن الآثار في مصر والرافدين ، وما هي إلا بضعة سنوات من ذلك حتى جاء الإستعمار الحديث ، في المنتصف الأول للقرن التاسع عشر ، بريطانيا للشرق ، وفرنسا للجزائر .

وقد قدمت هذه النهضة العلمية والفكرية النماذج والمناهج الجديدة ، من أجل دراسة الشرق. فالتقنيات الفيلولوجية التي بلورها أنصار النزعة الإنسانية على الخصوص لتطبيقها على النصوص اللاتينية والإغريقية والعبرية أي النصوص المقدسة، طبقت أيضا على النصوص العربية. وكان ذلك بداية لعلم جديد ، كان المستشرق ممثله. و الذي سيعيد خلق الشرق كما يتصوره على حدّ تعبير إدوارد سعيد .كما أرتبطت هذه النهضة بفلسفات تاريخية تتصور تاريخ العالم بأنه ينتهي إلى الغرب .

و على ضوء ذلك أصبحت المركزية الغربية الإطار الذي يتحرك داخله الإستشراق ، و من ثمة عدم الإعتراف بما هو خارج هذه المركزية. بل و إرجاعه إلى إطارها، لذلك فالمسلمون مثلا لا يمكنهم دراسة تراثهم ، في ظلّ عقدة التّقدس المسيطرة على أذهانهم لأنّ ذلك يجتّمهم القراءة الموضوعية إلاّ إذا تمكّنوا من الإنخراط في الثقافة الغربية و استخدام آلياتها و أنماطها الفكرية في التحليل⁽³⁾.

(محمد أركون : في فهم الإسلام ضمن كتاب الإستشراق بين دعائه ومعارضيه ، تقديم وترجمة هاشم صالح ، ص 355) .

إنّ العقل الغربي هنا يعلن إنتصاره فيكون الإستشراق بالتالي تعبيراً عن فائض قوة حضارية من المتقدم على المتأخر⁽⁴⁾

(نديم نجدي : جدل الإستشراق والعودة ، 2012 ، ص 41) . وتعبيرا عن فوقية واستعلاء . لذلك فالصورة التي رسمها المستشرقون عن الشرق ليست بالضرورة صادقة ، إنها صورة مختزلة ومختزعة وزائفة ، وقد عبّر إدوارد سعيد في كتابه الإستشراق عن ذلك أحسن تعبير حينما رأى بأنّ الشرق إختراع غربي . وعموما كل إرهابات العقل الغربي السابقة هي التي عبّدت الطريق للحركة الإستعمارية الحديثة ويمكننا أن نلاحظ ذلك من خلال المسار الذي رسمه هذا العقل لنفسه ، وعبر عديد المحطات التي طرقها وأبان فيها نواياه المبطنة والمعلنة .

2.2 الاستشراق : (الأهداف والمصّب الكولونيالي):

مما لا شك فيه أنّ الإستشراق قد نما وترعرع في مناخ فكري وثقافي متميّز عرفته أوروبا. فالمستشرق الذي يفني عمره في البحث و الدّراسة والتّنقيب إنّما يفعل ذلك داخل هذا المناخ ، وجهوده مدفوعة بغائية لا يستطيع تخطيها ، يتشابك فيها الدّيني مع السّياسي و الإقتصادي مع العلمي .ففي البدء و مند المواجهة الأولى مع العالم الإسلامي كانت الغاية دينية تبشيرية موجّهة بعامل الصراع فهذا شرق مندفع بعقيدته الجديدة و روحانيته المتميّزة ، و ذلك غرب يقف مههورا من هذا الدين الأخذ في الإنتشار مكتسحا الكثير من معاقله برز التفكير في الآليات التي يواجهون بها الإسلام فقام بعضهم بترجمة القرآن الكريم و لم تكن هذه الترجمة في واقع الأمر إلّا محاولة لفهم محتوى هذا الدين ، والعمل بعد ذلك على إستنباط ما يريدونه منه وإلى ربطه بكتابتهم المقدّس. وهي الخطوة التي وحدت الغرب المسيحي في وقت لاحق ضد العالم الإسلامي⁽⁵⁾

(محمود قاسم : الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية ، ص 7) .

فازداد عمل المبشرين أكثر بعد الحروب الصليبية باعتماد مختلف الوسائل للحطّ من الدّين الإسلامي ، وقد تخصّص الكثير من المستشرقين في مسأله. لذلك فالعمل التبشيري و التّصيري الذي تولّاه العديد من الكتّاب الغربيين كان غاية الدراسات الإستشراقية. وبرز هذا الترابط الكبير بين الإستشراق والتّبشير عبر عقد عديد المؤتمرات هنا و هناك، وعبر البعثات والإرساليات المختلفة للكتّاب والمثقفين ورجال الدّين والأطباء والفنانين إلى البلدان الإسلامية لدراسة أحوال المسلمين ، وما طرأت عليها من تغيّرات وتحوّلات سياسية وفكرية

وبالتالي العمل على إيجاد فجوات للتغلغل الثقافي والدّيني. ويقود هذا الإرتباط في الحقيقة إلى غاية أخرى هي الإمتلاك و الإستعمار .

حيث كان الغرب على الدوام حريصا على تدريب باحثين وديبلوماسيين ليكونوا أعوانا لبلدانهم في البلدان الإسلامية من أجل الوعي أكثر بثقافتها ومن تمّ إحكام القبضة عليها ، وهو ما يبين إرتباط المستشرقين أنفسهم بوزارات الخارجية أو المستعمرات. بل وكان أغلبهم عيون الغرب على الشرق . فهذا (بسمارك) قد أنشأ مدرسة للغات الشّرقية في ألمانيا وألحقها مباشرة بوزارة الخارجية . وعندما تأسست مدرسة اللّغات الشّرقية في فرنسا لم تلحق بالجامعة إنّما ألحقت بوزارة الشؤون الخارجية ، وكان المستشرق الفرنسي (لويس ماسنيون) من كبارها . وقبله كان (دي ساسي) يشغل منصب المستشرق المقيم بوزارة الخارجية الفرنسية منذ عام 1805.⁽⁶⁾ (محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي ، ص 556) .

ويعني لنا ذلك أن الإستشراق بوصفه منتج غربي عن الشّرق، قد كان طريقا للمهيمنة على هذا الشّرق وإمتلاكه. ويكون الإمتلاك هنا عن طريق الإستحواذ على المقدرات الطبيعية ، خاصة وأنّ الغرب قد عرف مع دخوله في الثّورة الصّناعية مشكلات إجتماعية وإقتصادية جديدة ألزمته البحث عن حلول لها خارج جغرافيته. ما يجعلنا نقول بأنّ الهدف الإقتصادي كان كذلك من محددات العقل الإستشراقي. فما يتمنّع به العالم الإسلامي من موقع جغرافي و موارد طبيعية يجعله على الدوام محل أطماع الغرب .و تاريخ الصّراع بينهما يشهد على ذلك ، و الذي للأسف أنتهى بميلان الكفة حاليا لصالحه. غير أن إرتباط العقل الإستشراقي بهكذا دوافع لا يمنع في الحقيقة بعضا منه من التجذيف خارج التّيار، فقد كان بعض المستشرقين مدفوعين بحب المعرفة و البحث والإكتشاف، فأنشأت كراسي للغات الشّرقية في عديد الجامعات الغربية، و أقيمت المعاهد و المدارس المتخصصة في الثقافات الشّرقية وترجمت الكثير من الأعمال العربية الإسلامية إلى اللّغات الأوروبية.⁽⁷⁾

(عبد الكريم بكري : مجلة المجلس الإسلامي الأعلى عدد 01 س 1998 ص 146) .

ولهذا السبب رأى مالك بن نبي بأنّ المستشرقين صنفان: متعصبون و هم الذين كانوا في خدمة الثّقافة الغربية المهيمنة وبالتالي حرّكتهم الأطماع الإستعمارية و الإقتصادية و

الدّينية . و منصفون و هم الدّين غلب على أبحاثهم الطابع العلمي. وكان قد قسّمهم تاريخيا إلى قدامى ومحدثين و بحسب إتجاههم إلى مادحين أو قادحين للحضارة الإسلامية⁽⁸⁾ (عبد الله ابراهيم : المركزية الغربية ، ص 64- 66) . و يمكن الإستنارة هنا بالمستشرقّة الألمانية (زيغريد هونكا) صاحبة الكتاب الشهير (شمس العرب تسطع على الغرب) التي تقول : "إن الدّين الذي في عنق أوروبا و سائر القارات الأخرى للعرب كبير جدا ، وكان يجب على أوروبا أن تعترف بهذا الصنيع ."⁽⁹⁾ (إدوارد سعيد : الإستشراق : المعرفة ، السلطة ، الإنشاء ، ترجمة كمال أبوديب ، سنة 2003 من مقدمة المؤلف) .

و في الملتقى السادس للفكر الإسلامي المنعقد بالجزائر سنة 1972 كانت من المشاركين وقد بيّنت أن الغرض من تأليفها للكتاب هو إحقاق الحق وبيان الدّور الكبير للعرب و المسلمين في الحضارة الغربية . و هناك العديد من المستشرقين غيرها من يحملون هذا التوجه ، إلا أنّ العقل الغربي الكلي المهيمن عادة لا يسمع إلا ذاته ولا يرى إلا نفسه.

3.2. الإستشراق: عقدة التفوق والهيمنة :

لقد سار العقل الإستشراقي إنطلاقا مما سبق وسط جو ثقافي غربي متميّز، طبعه الفكر (البيكوني) و(الديكارتّي) في القرن السابع عشر، ثم فكر (روسو Rousseau 1612-1778) وفولتير (Voltaire 1718-1794) وكانط (Kant 1724-1804) و فيكو (Vico 1668-1744 م) وغيرهم في القرن الثامن عشر، ممن ساهموا في نشر الفكر الأنواري، ومهدوا لقيام الثّورة الفرنسية سنة 1789م. وقد أنعكس هذا المناخ الفكري الجديد على الدراسات الإستشراقية، إذ بدأ العقل الغربي مع فتوحاته الجديدة خاصة في مجالات الطبيعية، الإعتزاز بنفسه، والإدعاء بقدرته المتفردة على دراسة أي شيء بمعزل عن الفكر اللاهوتي الموروث، وبالتالي القدرة على بلورة المفاهيم الأساسية للبحث العملي التي تشكل اليوم بنية الفكر العلمي والمنهجي للإنسان الحديث و لم يساهم الشّرق في هذا الميراث طيلة هذه الفترة أي طيلة أربعة قرون، بقدر ما كان منغلقا على ذاته يعيش على منجزات ماضيه، و هذا ما كان مبررا للغرب للتوجه إليه، وإزاحة اللّثام عنه. لذلك يقول المستشرق الإيطالي: " فرانسيسكو غابريلي": " لقد كان الإستشراق أولا أحد الجوانب المتفرّعة عن عصر التّنوير والرومانطية، ثم الوضعية والمادية التاريخية الأوروبية، وإذا أردنا أن نكتب تاريخه الكامل فإنّ ذلك يتطلب منا أن نعيد كتابه كل تطور ثقافة الغرب على تلك الأرضية التي زرعت فيها

خارج نطاق الغرب، وفيما وراء الغرب.."⁽¹⁰⁾ (فرانسيسكو غابرييلي، ثناء على الإستشراق ضمن كتاب الإستشراق بين دعائه ومعارضيه ترجمة وإعداد هاشم صالح، سنة 1794، ص 21).

وهو ما يعني عدم إنفصال العقل الإستشراقي الأول عن ذلك المناخ الفكري الغربي، فكانت الوسيلة الرئيسية للتغلغل والتملك، الإستطلاع والرحلة إلى هذا الشرق (البعيد) لترويضه وإرجاعه إلى طريق الخلاص الروحي، ونهب ما يوجد فيه من كنوز مادية أو معنوية وهو ما تبدى في عمل المبشرين ومختلف الرحالة الباحثين عن لذات قد لا توجد إلا في مخيالهم، وكان ما نهب من آثار مادية كاف لملأ الكثير من متاحف الغرب، والذي وظف بقصد وإرادة قوة من أجل معرفة أكثر بمجتمعات الشرق، شعوبها، لغاتها، معتقداتها، وعاداتها، فتحررت آلة التبشير في كل الاتجاهات مستخدمة كل ما تملك من وسائل لتني شعوب الشرق عن معتقداتها، وفي المقابل الترويج للعقيدة المسيحية، فوجه العديد من المستشرقين عنايتهم لدراسة الدين الإسلامي حتى تسهل عليهم هذه المهمة⁽¹¹⁾ (أحمد سمايلوفتش- فلسفة الإستشراق، ص 126).

وبهذا ازداد الإرتباط أكثر بين الإستشراق والتبشير حتى أصبح كلاهما وجهاً للآخر خاصة مع مطلع القرن العشرين، وبداية ظهور تكتلات ومؤتمرات المشرقين⁽¹²⁾. (أحمد سمايلوفتش- فلسفة الإستشراق، ص 136).

وكان على رأس هذه التكتلات والمؤتمرات مستشرقون بارزون يمكن ذكر " لويس ماسنون" الذي كان عضوا دائما في مؤتمرات تاريخ الأديان فضلا عن سلسلة محاضراته في (الكوليج دي فرانس) والمتعلقة بالتاريخ الإسلامي وخاصة المدينة الإسلامية⁽¹³⁾. (لويس ماستون: التنظيمات الحرفية، ص57).

وعمل المبشرين مازال حاضرا إلى يومنا هذا في المشهد الثقافي والإجتماعي للمجتمعات الإسلامية، وهذا الوجه الذي ظهر به الإستشراق سرعان ما أبان عن وجه عدائي آخر مثلته الحركة الإستعمارية منذ القرن التاسع عشر، أين بدأ الغرب يتمدد خارج جغرافيته، فكان العديد من المستشرقين عيوننا لهذه الحركة، بل وكان بعضهم موظفا رسميا تابعا لوزارة الحربية أو الخارجية، الأمر الذي حوّل علاقة الغرب بالشرق إلى علاقة السيد بالعبد كما عبّر عن ذلك إدوارد سعيد⁽¹⁴⁾ (إدوارد سعيد: الاستشراق المعرفة...ص 121). خلافا للمعنى

الهيكلية من هذه الجدلية، فاستباح الغرب الإنسان والجغرافيا وسلب التاريخ من أصحابه، وكان ذلك إعلاناً عن ميلاد أعتى الإمبراطوريات الكولونيالية في العصر الحديث ، والتي إستطاعت إبادة أي شيء من أجل فرض هيمنتها، خاصة وأنّ ذلك قد تزامن مع تعاظم ونمو الرأسمالية الغربية.

3. الجزائر بعين المستشرقين الفرنسيين:

إعتمد الإحتلال الفرنسي في الجزائر على المثقفين العارفين للغة العربية و المطلعين على أحوال الشرق والإسلام عموماً ، وقد أستعان في البداية ببعض المثقفين المسيحيين الشاميين . و هذا الفريق ساعده في هذه المهمة بحلول كل من (بير بروجر pierre brugger و برينييه brenier) بالجزائر و مواصلتهما الحثيثة لخدمة الإدارة الفرنسية والإستشراق ، كل في مجاله ، تولى الأوّل الدراسة والبحث في إطار الجوسسة العلمية وتولى (برينييه) تدريس العربية والدارجة لجيش من الجنود و الإداريين الذين أصبحوا هم الحكام في المكاتب العربية فترة طويلة. و قد تعاون معهما عدد من العلماء المستشرقين و العسكريين أمثال (هادمان ، ديرينو ، ديفوكس ، ديسلان)⁽¹⁵⁾

(إدوارد سعيد : الإستشراق (المعرفة ، السلطة ، الإنشاء) ، ص 89) .

وكان هذا كما يرى أبو قاسم سعد الله تدشيناً لعهد إستشراقي فرنسي في الجزائر خلال الفترة (1830- 1870) أما العهد الثاني لهذا الإستشراق فيمتد من 1870 إلى غاية 1905 ، وهي الفترة التي شهدت إنعقاد مؤتمر المستشرقين الرابع بالجزائر على يد مستشرقين يشكلون في آن واحد أعضاء هيئة التدريس في مدرسة الآداب بالجزائر، كما عرفت هذه الفترة ظهور مستشرقين بارزين تركوا بصماتهم على الإستشراق الفرنسي بالجزائر ، وظهر إلى جانبهم بعض معاونهم الجزائريين أمثال (ابن سديرة ، ابن الونيس وابن أبي شنب ، بوليفة ..⁽¹⁶⁾) . (أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية 1860 – 1900 الجزء 1 ، ص 531) .

وقد أتجه هؤلاء المستشرقون إلى الإهتمام بمختلف الجوانب التي تساعد على إحكام القبضة الإستعمارية، فهذا المستشرق (باسيه) بالمجال اللغوي والأدبي، و ذاك (رين) بالإتنوغرافيا والدين ، و (كوبولاني coppolani) بالحركة الصوفية ، و (لوسيان) بالأعمال

الفكرية و الإدارية... و أستطاعوا أن يكونوا تلاميذ بارزين ، منهم (ألفريد بيل) الذي ساهم بقسط وافر في ربط الإستشراق بالإدارة الفرنسية ، و العمل على تدنيس الثقافة المحلية خاصة في شقها المتعلق بالإسلام . و قد أنتهى عديد هؤلاء إلى المدارس العليا التي كانت متواجدة بالجزائر العاصمة و التي تحولت سنة 1909م إلى جامعة الجزائر، وكانت هذه المدارس مختبرا فرنسيا لكلّ ما هو جزائري وإسلامي وإفريقي. إذ قاموا بالبعثات والرّحلات إلى أعماق الصّحاري والفيافي والحواضر حتى خارج الجزائر.⁽¹⁷⁾

(أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية 1860 – 1900 الجزء 1 ، ص 532) .

وكانت حلقات اللّغة العربية التي أسّست في الثلاثينات والمدمجة في التعليم موجهة إلى الفرنسيين الذين تولوا الوظائف العسكرية والمدنية في الجزائر وكان منها واحدة في كل إقليم العاصمة ، قسنطينة ، وهران ، وقد أدخلت بعد ذلك إصلاحات على هذه المدارس الشرعية الفرنسية الثلاث وأسندت إدارتها إلى مستشرقين فرنسيين⁽¹⁸⁾ (أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية 1860 – 1900 الجزء 1 ، ص 532) .

ولو رجعنا إلى الوراء بقليل أي بداية غزو فرنسا للجزائر نجد أنّ المستشرق الفرنسي الشهير أو أبو الإستشراق الفرنسي (البارون سلفستر دي ساسي B.s.DeSacy) هو من قام بترجمة الخطاب الموجه للجزائريين ، وكان ضليعا باللّغة العربية على ما يذكره عنه جمال الدّين الأفغاني الذي ألتقاه وناظره في باريس في صحيفة لوديبا الفرنسية (le débat) ، ومن بعده أخذ تلامذته نفس المسار في تعلم اللّغة العربية وما يتعلق بالثقافة العربية الإسلامية ، حتى أصبح لهذه الأخيرة كراسي في كبريات الجامعات الفرنسية يضطلع بها أبرز المستشرقين . ولتثبيت دعائم الإستعمار كان ضروريا أن يجنّد الكثير من هؤلاء المستشرقين ، والذين بدورهم وجدوا في بعض أبناء الأهالي من يساعدهم في أداء الدور ، و انخرط بعضهم في صميم الحياة الإجتماعية للجزائريين فعرف الكثير من عاداتهم وأساليبهم في العيش . إن في قبائل الشمال ، أو في قبائل الجنوب ، ومنهم من أسهوته هذه الحياة الجديدة فانقلب إلى الإسلام ودافع عنه في قومه كما هو الحال بالنّسبة للمستشرق الفرنسي (ETIENNE DINET) (1861 – 1929) الذي عاش في بلدة بوسعادة بالجزائر و الذي سمي نفسه (ناصر الدين) وقد ترك العديد من التّصانيف بالفرنسية منها Mohamed Mohamed ؛ (في السّيرة النبوية) ، وقد

ساعده في ذلك الجزائري " سليمان بن إبراهيم " وقد توفي في فرنسا ، ثم نقل جثمانه إلى الجزائر بوصية منه ودفن فيها⁽¹⁹⁾.

l'orient vu de l'occident essai critique par : E.Dinet et Sliman Ben Brahim. (.)Edition: alem el afkar alger 2012

وهناك المستشرق (ماسنيون) الفرنسي المعروف الذي كان جاسوسا في الشرق ، وقد عمل بقدر كبير على قراءة العقل العربي الإسلامي في شقه الصوفي بتركيزه بصورة أكبر على ما يحويه من جوانب لامعقولة كالخرافات و الأباطيل و حكايا شيوخ الزوايا وال دراويش . مخصصا حياته بكاملها للكتابة عن الحلاج لكن من وراء ذلك كان يريد حشو العقول بالكثير من الأباطيل والخرافات حتى يعمق الهوة بين طائفتين توجدان بالجزائر ، واحدة تتمسك بالقديم ، قتنساق حسب إعتقاده إلى هذه الخرافات والأباطيل

لتجعلها من صميم الإسلام ، وطائفة متشعبة بالثقافة الحديثة تتجه في إعتقاده إلى السخرية من هذه الأفكار التي ينطوي عليها

الإسلام ، وبالتالي حتى تزدرى الإسلام كله⁽²⁰⁾. (محمود قاسم : الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية ، ص 7). وليس غريبا بعد هذا أن نعلم أن هذا المستشرق كان مستشارا في وزارة المستعمرات الفرنسية لشمال إفريقيا ، وخدم هو نفسه في الجيش الفرنسي خمس سنوات في الحرب العالمية الأولى⁽²¹⁾.

(محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي ، ص 556).

ونذكر أيضا المستشرق الفرنسي (ليون روش Leon Roch) تلميذ (دي ساسي) الذي أعدّ مشروع إستصدار فتوى من علماء الإسلام تمكّن فرنسا المستعمرة من البقاء والإستقرار في الجزائر وذلك بإخماد حركة الجهاد أو المقاومة ضدها أيام المقاومات الشعبية التي كان يقودها أبطال المقاومة. وكان نص الفتوى التي باركها الحكّام في فرنسا و شجعوها تتعلق بالسؤال التالي : " إذا دافع المسلم عن بلده أو تغلب عليها النصارى فيها ولكنهم أباحوا له شؤون دينه واحترموا نساءه ومساجده ، وهو يرجو أن يتحرّر من غلبتهم عليه ذات يوم ، هل يجب عليه الجهاد أو يسقط ؟ وقد حصل هذا المستشرق باستعماله كل وسائل الترغيب والتهريب على الموافقة بسقوط الجهاد من الحجاز والأزهر و القيروان⁽²²⁾ . (عبد الكريم

بكري : صورة الإسلام في الفكر الإستشراقي القديم و الحديث ، مقال منشور في مجلة المجلس الإسلامي الأعلى ، الجزائر، العدد 1، سنة 1998 ، ص 146).

وهو ما يفسر مدى تحكّم السّلطة الإستعمارية في السّلطة الدّينية المعروفة وقتها ، بل و مدى هيمنة السّياسي على الدّيني. و هنا السّياسي هو الآخر الذي أدرك مفعول السّلطة الدّينية التي إن أمّلتها فقد أمّلتك البلاد والعباد.

ويمكننا هنا أيضا أن نذكر أحد أكبر الفلاسفة الفرنسيين وهو أرنتست رينان المتخصّص في ابن رشد ، والذي دافع بشدة عن أطروحة عجز العقل العربي على الإبداع العقلي وفي المقابل قدرة العقل الأوروبي على ذلك ، و هو ينتمي إلى الجيل الثاني للإستشراق و كان دوره " منح التماسك و الصّلابة للإنشاء الرسمي للإستشراق ، و منح الإنتظام لحدوسه ونظراته الثابتة و تأسيس مؤسساته الفكرية و المادية"⁽²³⁾. (إدوارد سعيد: الإستشراق ، ص151).

من خلال هذه العينة من المستشرقين الفرنسيين يتضح لنا كيف كان الإستعمار الفرنسي للجزائر مسنودا بالمعرفة الخابرة كما يسميها إدوارد سعيد أو الإستشراق و كيف ارتبطت المعرفة بالقوّة إلى الحدّ أنّ كلاهما أصبح شيئا واحدا ، كما يبيّن ذلك " فوكو" في (الكلمات و الأشياء) أو " سعيد" في (المثقف و السلطة) ، وربما أكثر من هذا كما يذهب " عبد الله ابراهيم" في كتابه (المركزية الأوروبية) أن الفكر الغربي بكامله منذ اليونان كان موجها لخدمة الإمبراطورية الصاعدة ، فالذي لا ينتمي إلى جزر اليونان و بعد ذلك إلى الجغرافيا الرومانية فهو بربري ، ومن لا ينتمي إلى الإمبراطورية المسيحية في القرون الوسطى فهو كافر ، و في العصر الحديث سادت النزعة العنصرية أكثر فظهرت نظريات فلسفية كبرى تغدي ذلك بداية من النزعة العرقية (ونهاية التاريخ عند الشيوعية) إلى الهيجيلية (ونهاية التاريخ بظهور الدولة التي تجسّد الرّوح المطلق) ، وحتى النظريات العلموية والوضعية تصبّ في هذا الإتجاه لأنّها تجسّد إنتصار العقل الغربي ، وبلوغه الكمال التجريبي دون أي عقل آخر ، والنظريات الحدائية و ما بعد الحدائية كلها كذلك تعبر عن إنتصار هذا العقل ، وفي المقابل لا قيمة للعقول الأخرى مالم تندمج في هذا العقل الكلّي⁽²⁴⁾.

(عبد الله إبراهيم : المركزية الغربية ، ص 64-66).

ومن خلف هذه المنظومة الفكرية بكاملها جاء الإستشراق و جاءت الكثير من العلوم الإنسانية لخدمة الحركة الإستعمارية في القرن التاسع عشر ، وإلى القرن العشرين .

1.3 الإستشراق وصور الجزائر المنمطة:

وقد ساهم هذا الإستشراق في تكوين صور نمطية عن المجتمعات الشرقية عموما بما في ذلك الجزائر، كأن يصوّر الجزائري بالكائن اللّامشمول حضاريا ، أو اللّامندمج حدائيا لأنّه مازال في تفكيره وسلوكه ينتمي إلى المجتمع التقليدي أو حتى الطبيعي ، ولذلك أهتم بعض المستشرقين بدراسة ردود أفعال إنسان المجتمعات اللّأوروبية ، وكيفية تواصله مع غيره ، ما هي الإشارات التي يستعملها هل هي نفسها إشارات الإنسان الحدائي الأوروبي ، وقد كانت الصّورة التي أستخدمها إدوارد سعيد لغلاف كتابه (الإستشراق) مُعبّرة جدا عن هذا ، فهي تبين إمراة بلباسها الجزائري التقليدي الذي يغطّي كل أجزاء جسدها أمام أحد القصور العثمانية ، وهي توجي للأخر أو الأوروبي مدى التّباين بينه وبين هذا الشّعب الجزائري ، ومدى تخلفه في آن واحد ، لأنّ الذي يغطي جسده بهذه الكيفية لا يمكنه أن ينخرط في أي فعل حضاري ، و بمعنى آخر فإنّ المستشرق كان يريد أن يضع أوروبا دائما موضع التّضاد مع الشرق⁽²⁵⁾. (إدوارد سعيد : الإستشراق : المعرفة ، السلطة ، الإنشاء ، ترجمة كمال أبوديب ، سنة 2003 من مقدمة المؤلّف) .

وهنا مع الجزائر . وقد تصور الجزائر أيضا عند بعض المستشرقين على أنّها واحات من النّخيل فيها من السّحر والغرابة ما يحفز الأوروبي على ضرورة إقتحامها ، وفكّ رموزها الغرائبية .

كما تصور على أنّها فضاء لنساء جميلات يتبادلن أحاديث في الحمّامات وهنّ بلباس كاشف فيه من الإغراء ما يجعل الأوروبي أو الفرنسي لا يفكر إلّا في هذا الفضاء ، وفيه من الغرابة أيضا ما يجعله لا يتردّد في المجيء إلى هذا العالم الخيالي العجيب والجميل من أجل إقتحامه . وخير وصف نجده هنا لهذه الفضاءات ؛ هو ما أورده (غوستاف لوبون) رغم ما كان يهدف إليه من إبراز لعراقة الثّقافة الشّرقية أو العربية. حيث يقول: " فيما يتعلق بالحمّامات فالشّرقيون يختلفون إختلافا كبيرا عنا نحن الغربيون في ثقافة الحمّامات .فهي عندهم أمكنة للإجتماعات واللّقاءات قد تشبه ما كان موجودا عند الرّومان القدامى .و هي متشابهة على العموم في بناءاتها لكّتها تختلف في حجمها وشكلها .و بها غرف لكلّ واحدة منها وظيفتها.

مع وجود ألبسة خاصة وشخص يسهر على تدليك المستحمين... "وهذه الميزة التي تنفرد بها الحّمّات العربية هي عاكسة في الحقيقة لثقافة متميّزة عن الثقافة الغربية (26). Gustave Le bon : la civilisation des arabes ; casbah edition alger 2009-P331

ويخصّص (لوبون) مبحثا كاملا للحديث عن الأفراح والأعراس والختان والإحتفال بالمواليد الجدد ويقدم ذلك بوصف جذّاب عاكس للآخر متميّز عن الإنسان الغربي. ونحن هنا لا نعترض على ما قدّمه الرّجل باعتباره من المنافحين عن دور الحضارة العربية الإسلامية. بقدر ما نسعى لإبراز صور منمّطة يرسمها العقل الغربي عن المخالف له ثقافيا وحضاريا.

من هنا فالشرق الذي يتجلّى في الإستشراق ما هو إلاّ نظام من **التمثيلات** والصّور وراءها قوى أستطاعت أن تقدّم الشرق بهذه الصّورة المرادة إلى الوعي الغربي. فقد دغم الإستشراق من قبل الضّغوط الثّقافية العامة التي كانت تميل إلى تعميق الشعور بالتمايز بين الغرب والشرق. وبمعنى ما فقد ساهمت هذه الفجوة الموجودة بينهما في تعزيز وجهة الإستشراق المستندة إلى مادة كثيفة من النقولات الشّفهية والنّصية؛ كالحكايا التي أستولدها المخيال الجمعي في الغرب عن جماعة أخرى من الغرباء... ليسوا كمثليهم في المأكل والملبس والمشرب. وهي أمور تدعوا إلى الدهشة. "لذلك أصبح العقل الغربي يتقبّل مختلف المنقولات عن هذا الغريب.

كما قد يقدّم بعض المستشرقين صورة عن الجزائر مختزلة في صورة طفلة صغيرة بشعر منفوش يبرز من وراء غطاء الرأس ، ولباس رث أحيانا ممزق يكشف بعضا من جسمها ، حتى يثير في الأوروبي الشّعور بالرأفة والرّحمة إزاءها ، لأنّها لم تجد من يرأف بها ، وكأنّ الأمر في النهاية ما هو إلا محاولة دفع بالإنسان الغربي للقدوم إلى هذا الشّرق السّحري (الجزائر) المليء بالغرائبية والوحشيّة والجمال⁽²⁷⁾. (إدوارد سعيد : الإستشراق (المعرفة ، السلطة ، الإنشاء) ، ص 89).

ولذلك لم يكن الإستعمار بغرض إقتصادي فقط إنّما كذلك بغرض إستكشاف هذا العالم الغريب و إبراز الرّغبة في تضخيم أناه الوجودي و إقصاء الآخر. و خلف هذه الصّور جميعا تبرز الصّور البائسة والمغرية في آن واحد للجزائر و معها كلّ المجتمعات العربية و الإسلامية. و مازال إلى اليوم الإعلام الغربي يبرز شعوب هذه المناطق كما لو أنّها خارجة لتوّها

من قبورها وهي موجهة على الدوام بمنطق إنفعالي لا يعرف العقل طريقا إليه. تزحف بأعداد ضخمة نحو مصير مجهول (أبو كاليبسي) ، الواجد منها لا يعرف إلا الغدر و الخديعة و التّعطش للدم رغم كونه ينام على خيرات الأرض. فكم من مرة يطالعنا هذا الإعلام بأخر ما ابتكره من رسوم للإنسان العربي ، مرة بطنه منتفخ على شكل برميل، وأخرى بلباسه التقليدي يقف خلف مضخة بنزين ، و مرات في صورة سفاح بسيفه و لحيته الطويلة وهكذا... وهي كلها عاكسة لدرجة عالية من إحتقار المختلف حضاريا وثقافيا ، و تعبير عن عنصرية عرقية دفيئة للأسف راكمتها منظومة ثقافية على مدى قرون

4. خاتمة:

الصّور المنمّطة سواء عن الجزائر أو العالم العربي الإسلامي في الحقيقة متعددة ومتنوعة، و هو ما يجعل من الإستشراق بكل تأكيد المعرفة الموجهة للإستعمار، إذ هو الذي يقدم له مختلف التقارير ومختلف التنميطات عن هذا المجتمع ، لضمان إحكام القبضة عليه أكثر ، ولذلك لا غرابة أن يقوم الإستعمار أيضا بتجنيد جيوشا من المستشرقين لخدمة هذا الغرض حتى تلتحم القوة بالمعرفة كما كان يقول " فوكو " بل وتتحول المعرفة ذاتها إلى قوة . و تأخذ الثّقافة بالتالي صورتها السلطوية العنيفة وتصبح الحقيقة مجرد حيلة من حيل السلطة ؛ لأنّ العلاقة التي تجلّت في عملية تأويل الشّرق من قبل المستشرقين هي علاقة عنف ما دامت موجهة ومقصودة وليست علاقة إكتشاف. ونحن هنا لا نهدف إلى إثارة الحميّة القوميّة بقدر ما نسعى إلى محاولة الانخراط في قراءة علمية جادة للظاهرة الإستشراقية تحرّنا من تلك الإستقطابات الإيديولوجية التي ميّزت العقل الإستشراقي، و الخروج من دائرة الإتهامات المتبادلة و إبراز قدرة الأنا على التفكير والتّسامح واحترام المختلف. بل وحتى مع إدراكنا لما قام به الإستشراق من تزييف للوعي الغربي والعربي على السواء من خلال تنميته لصور الآخر ، إلاّ أنّه مع ذلك لا يمكن وضع كلّ الدّراسات الإستشراقية في سلة واحدة ، لأنّ منها من قدّم خدمات جليّة للثقافة العربية الإسلامية، من تحقيق و حفظ لمختلف المخطوطات و الآثار ، وفضلها عرفنا الكثير من تراثنا و أعلامنا في عديد المجالات ، ولعلّ الإستشراق الألماني المثال الأوضح على ذلك.

List of references :

- Abdullah Ibrahim: Arab Culture and Borrowed References, Arab Cultural Center, Beirut, Lebanon, Casablanca, Morocco, 1st Edition, 1999.
- Edward Said: Orientalism: Power, Knowledge, Creation.
- See Muhammad Arkoun: On Understanding Islam in the Book of Orientalism between its Advocates and Opponents, presented and translated by Hashem Saleh.
- See Nadim Najdi: The Controversy of Orientalism and Globalization, Dar Al-Farabi, Beirut, Lebanon, 1st Edition, 2012.
- See Mahmoud Kassem: Imam Abdelhamid Ben Badis, spiritual leader of the Algerian war of liberation
- See Muhammad al-Bahi: Modern Islamic Thought and its Relationship to Western Colonialism
- Abdul Karim Bakri: The image of Islam in ancient and modern orientalist thought, an article published in the Council magazine.
- Abdullah Ibrahim: Western Central, Arab Institute for Studies and Publishing, Beirut, Lebanon, 2nd Edition, 2003
- Edward Said: Orientalism: Knowledge, Power, Creation, translated by Kamal Abu Deeb, Arab Research Foundation, Beirut, 6th Edition, 2003 from the author's introduction.
- Francisco Gabrielli, Praise for Orientalism within the book Orientalism between its Advocates and Opponents, translated and prepared by Hashem Saleh, Dar Al-Saqi Beirut, Lebanon, 1st Edition, 1794.
- Abu al-Qasim Saad Allah: The Algerian National Movement 1860-1900 Part 1 - Dar Al-Gharb Al-Islami Beirut - 1st Edition
- See Mahmoud Qasim: Imam Abd al-Hamid ibn Badis, the spiritual leader of the Algerian war of liberation, p. 7
- Abdelkrim Bakri: The Image of Islam in Ancient and Modern Orientalist Thought, article published in the Journal of the Supreme Islamic Council, Algeria, No. 1, 1998, p. 146.
- Edward Said: Orientalism, Knowledge, Power, Creation, translated by Kamal Abu Deeb, Arab Research Foundation, Beirut, 6th Edition, 2003 from the author's introduction.

5. المراجع:

- 1- عبد الله إبراهيم: الثقافة العربية و المرجعيات المستعارة ، المركز الثقافي العربي ، بيروت، لبنان ، الدار البيضاء المغرب ، ط1، 1999.
- 2- إدوارد سعيد: الإستشراق: السلطة ، المعرفة ، الإنشاء .
- 3- أنظر محمد أركون: في فهم الإسلام ضمن كتاب الإستشراق بين دعائه ومعارضيه ، تقديم وترجمة هاشم صالح .
- 4- أنظر نديم نجدي: جدل الإستشراق والعمولة دار الفرابي بيروت ، لبنان ، ط1، سنة 2012 .
- 5- أنظر محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية .
- 6- انظر محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي .
- 7- عبد الكريم بكري: صورة الإسلام في الفكر الإستشراقي القديم والحديث ، مقال منشور في مجلة المجلس .
- 8- عبد الله ابراهيم: المركزية الغربية , المؤسسة العربية للدراسات و النشر بيروت لبنان ط2 سنة 2003
- 9- إدوارد سعيد: الإستشراق: المعرفة ، السلطة ، الإنشاء ، ترجمة كمال أبوديب مؤسسة الأبحاث العربية بيروت ، ط6 ، سنة 2003 من مقدمة المؤلف .
- 10- فرانسيسكو غابرييلي، ثناء على الإستشراق ضمن كتاب الإستشراق بين دعائه ومعارضيه ترجمة وإعداد هاشم صالح، دار الساقى بيروت ، لبنان ط1 ، سنة 1794 .
- 11- أحمد سمايلوفتش- فلسفة الإستشراق، مرجع سابق.
- 12- المرجع نفسه.
- 13- لويس ماستون: التنظيمات الحرفية.
- 14- إدوارد سعيد: الإستشراق المعرفة.
- 15- إدوارد سعيد: الإستشراق (المعرفة ، السلطة ، الإنشاء) مرجع سابق .
- 16- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1860 – 1900 الجزء 1، دار الغرب الإسلامي بيروت ، ط1،
- 17- المرجع نفسه ،
- 18- المرجع نفسه ، ص 532 .

¹⁹ - VOIR l'orient vu de l'occident essai critique par : E.Dinet et Sliman Ben Brahim. Edition: alem el afkar alger 2012.

²⁰ - أنظر محمود قاسم : الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية ، ص 7 .

²¹ - أنظر محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي ، ص 556 .

²² - عبد الكريم بكري : صورة الإسلام في الفكر الإستشراقي القديم والحديث ، مقال منشور في مجلة

المجلس الاسلامي الأعلى ، الجزائر ، العدد 1 ، سنة 1998 ، ص 146 .

²³ - إدوارد سعيد : الإستشراق ، مرجع سابق ، ص 151 .

²⁴ - عبد الله ابراهيم : المركزية الغربية ، ص 64-66 .

²⁵ - إدوارد سعيد : الإستشراق ، المعرفة ، السلطة ، الإنشاء ، ترجمة كمال أبوديب ، مؤسسة الأبحاث

العربية بيروت ، ط 6 ، سنة 2003 من مقدمة المؤلف .

²⁶ - Gustave Le bon : la civilisation des arabes ; casbah edition alger 2009-P331

²⁷ - إدوارد سعيد : الإستشراق (المعرفة ، السلطة ، الإنشاء) مرجع سابق ، ص 89 .